افتتاحية العدد:

غزّة والبلاغة

بقلم: الدكتور إبراهيم قاسم العزنكي
أكاديمي عربي يسكن في لبنان
azanki.ibrahim@gmail.com
schoolalrashad@gmail.com

البلاغةُ مِن الجذرِ «بلغَ» وقد دأبتُ مُنذ ستّة وعشرين عامًا على بثّ توجّهٍ لغويٍّ دلاليٍّ أسميتُه مُستلزماتِ الجذرِ، ومَفادُ هذا التّوجّه أنّ اللّغة وُجدت، أو ابتُكرت للتّعبير عن الواقع أوّلا، ومِن ثَمّ عن المشاعرِ والمفاهيمِ والحاجاتِ، وسُرعانَ ما تُصبح تلكَ المشاعر والمفاهيم والحاجات وقائع، فليس شرطًا أن تكون الوقائع دائمًا مدركةً بالحواسّ.

فالجذور اللّغويّة وعلى كثرتها في اللّغة العربيّة، تبقى أقلَّ بكثيرٍ مِن الوقائع؛ لذا نرى أنّ الشّائع مِن دلالةِ جذرٍ لغويٍّ ما لا يستقيمُ معَ الحقيقةِ الرّياضيّة اللّغويّة: الجذور اللغوية بدلالاتها الشائعة وقائع الجذرِ اللّغويّ دلالته هي في الحقيقة أقل بكثير من الوقائع القائمة والمستجدة. ثمّ إنّ التّفاوت بين عدد الجذور والوقائع وما يرتبط بها قد أملى التّوسّع في استحداث معان ودلالات جديدة للجذر الواحد. هذا ما ألجأ النّاس إلى التّجوّز وأساليبه بدءًا مِن التّشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل بأنواعِه وأسبابِه. وإنّي لأزعمُ أنّ الأسرار، بل قل، الدّوافع والتّشوّفات الّتي تكمنُ في مواطنَ النفوسِ

وغياهبها، أو إشراقاتها هيَ أهمّ أسباب التّعدد الدّلاليّ للجذر الواحد أو للمفردة الواحدة عامّة، كما هي مِن أبرز دواعي المجاز وغيره مِن الموضوعات البلاغيّة، وقد يكون مِن أعظمها تلك الرّغبة الجامحة في تحصيلِ لذّة اللّذات القابعة في التّخيّل والمقارنات البعيدة، والسّفر إلى عوالم تُصنع فيها التّصوّراتُ أو تتجلّى فيها الرّؤى وقائعَ محسوسةً جُزيآتها الحروف المنظومة في سلسة ال (DNA) اللّغوية المطبوعة على غير مثال سابق. ذلك كلّه يهزّ القائل المُبدع، ويرتفع به، بل يسمو به إلى عوالم وبيئة لا يستقيم فيها ذلك الشعور الطيّب الغامز منفردا؛ فيطرح قوله ذلك أو كلّ تجربته دعوة لك، ويرجو قبولك إيّاها لتشاركه كلّ ما ينتابه من هزٍّ، ورقصٍ، ورضًى..

إذًا فالوقائعُ إمّا أن تكون مخلوقة، وإمّا أن تكون من صنع البشر، وقد يكون المصنوع إبداعًا، والإبداع هو الإتيان بشيء جديد غير مسبوق، ومناسب للسّياق. وما أكثر صور هذا الجديد، ففي المجالات الماديّة تطالعنا المخترعات يوميًّا في مختلف الميادين: الطبيّة الصّحيّة، والهندسيّة المعماريّة، والآلات العسكريّة، والمصانع الغذائيّة... وأدوات القياس بوحداتها الغريبة في البرّ والبحر والفضاء... إلخ، وإلى جانب ذلك كلّه تنبت قيم وأفكار ومفاهيم، ومن ثمّ لا بدّ أن تواكب اللّغةُ بحروفها وبمفرداتها وبقوانينها وبأساليبها الحقيقيّة والمجازيّة تلك المستحدثاتِ من الوقائع الماديّة والأفكار والمفاهيم والقيم المعنويّة. وبذلك تكون اللغة والمُتلاغون بها مخاطبة أو كتابة عالة على ما ذكرنا. وكما يبدو، إنّ اللّغة تنمو بالتّواصل وتتألق وترتقي بالنّقد. وتوظيفا لما تقوم، وأخذا له بعين الاعتبار، وإدراكا للعلاقة بين اللغة والوقائع نفهم قول أبي تمّام (188 هـ 231 هـ) (830 م 845 م) في معركة عمورية بعد أن نصح المنجّمون الخليفة العباسيّ المعتصم بأنّه سيخفق فيها:

السّيف أصدق إنباءً مِن الكُتب * في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

بيض الصّفائح لا سود الصّحائف * في متونهنّ جلاء الشّكّ والرّيب

فتح تفتّح أبواب السّماء له * وتبرز الأرض في أثوابها القشب

أعظم به من فتح! استدرج قولًا عظيمًا لا أقول يوازيه. بل أين منه صورة المستحيل أو المعجزة، فالقائد السّياسيّ صاحب القرار، والقائد العسكريُّ المغوار، والجنود الكُرّار ما كان لهم أن يصلوا إلينا بهذه الأفلام المصوّرة للكون سماءً، ونجومًا وكواكب وشموسًا

فكأنّنا معهم وَأيدينا على مقابض سيوفهم وأظفارنا أسنّة رماحهم.

وليس المقام هنا لشرح القصيدة وبيان أوجه الإبداع فيها، إنّما الهدفُ أن أوقفك على تلك العلاقة بين الوقائع والأحداث والتّعبير عنها، وأنّ اللغة فيها من الطواعية والمرونة والخلايا المتجدّدة وما تمنحه سلسة ال (DNA) اللغويّة المتطلّعة دائمًا إلى التّجدّد إلى حدّ الإدهاش والإبهار. ولا تقصر عن التّعبير عن الوقائع والأحاسيس والمواقف المستجدّة. وهذا المتنبّي (303 هـ 358هـ) (915 م 965م) في رائعته:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم * وتأتي على قدر الكرام المكارم

في قلعة الحدث الحمراء. ولو قرأت هذه القصيدة؛ لنقلتك إلى ذاك الزمان، وحملتك إلى تلك القلعة متقلّدًا سلاحك يضرب أذنيك قرعُ القنا، وتشخص ببصرك إلى شاهق بنائها؛ فينقلب إليك بصرك خاسئا، وينطلق لسانك مكبرا، ولا يغادر الإعجاب خليّة واحدة من خلاياك. وكأنّ رذاذ أمواج الرّدى المتلاطمة تنعشك، وتستيقظ فيك الهمّة والصّبر والجلد. وإلى ذلك فلن تكذِّب ناظريك إذ ترى جيادًا لا قوائم لها وقد سَرت مسرعةً يُطرب أذنيك صهيلها، وتُحلّق وأنت تسمع تلك المنظومة الموَسيقيّة: تكبير وصهيل وقراع سيوف وأنين وفخر واعتزاز، فلله درّ الكلمة! فيها نخرق حاجزي الزّمان والمكان، وبها تُخلَّد الأحداث. وتحفظ سير الأبطال، فالأقوال والأفكار والحِكمُ والأشعار كلهنّ بنات الأحداث

وما صنعه القسّاميّون وإخوانهم في مختلف الفصائل جدير أن نقف عنده لا من حيث السّياسةُ، ولا من حيث علوم الحرب ولا.. ولا.. ولا. ولكن من حيث مقارنته بالقليل الذي نقلته الإذاعات والفضائيّات. فما غاب عنها أعظم وأكبر.

ولنا أن نسأل عن سبب اختلال المعادلة الأدبيّة: أحداثُ ووقائعُ بما فيها من بطولات ومواقف نسطر أكبر بكثير من التّعبير الأدبي عنها

فأين الشّعراء والأدباء والرّوائيّون.. و.. و.. و.. ؟ أين أبو تمّام غزّة؟ أين متنبّي جحر الدّيك؟

ألا تستحقّ غزّة أن يكون لها في كلّ شبر شاعر!؟ كما لها في كلّ شبر مقاتل ملهم مبدع، وطفل منتصرٌ، وأمّ تهدي بسمة النصر للأمّة، وهي تودّع أبناءها.

لا... العقول لم تضمحل، واللغة ولّادة لكن بوصلة التقليد وما يستقر في المناطق المخصصة من بنية أدمغتنا وتحديدا تلك التي تصنف على أنها مناطق مسؤولة عن العمليات اللغوية، وهي منطقة (بروكا) الموجودة في الجانب المهيمن من الفَصّ الأماميَ لأدمغتنا، وفيها يتمّ بناء الكلمات ونطقها، ومنطقة (سيرنيك) القابعة في القسم الخلفي من الفصّ الصّدغي بالمخّ، وهي المسؤولة عن استيعاب اللغة، والتعامل الحسيّ مع ما تستقبله من كلام مسموع أو مقروء. فالنماذج التي نستقبلها، لها أثر كبير في النماذج التي ننتجها، وهناك أدوار فاعلة للذكاء والبنية الشخصية ومتأثّراتها الاجتماعيّة والثقافية والعلمية و... و... إلخ.

وبهذا قد يفسر الباحث، لماذا ما زالت كتبنا في البلاغة عالة على نماذج ضاربة في القدم من العصر الجاهلي فالأموي فالعباسي مروراً بما سمي عصر التخلف والانحطاط، فالدارس يرى النماذج اللغوية في الدرس البلاغيّ واحدة، فضلًا عن المصطلحات والموضوعات وتصنيف علوم البلاغة: المعاني، البيان، البديع، وترتيب مباحثها حتّى صارت البلاغة جداول جافّة، ومصطلحات غير دالّة، واضمحل الذّوق إنتاجًا، والتذوّق استقبالًا، وأصبح همّ المُدرّس أن يُحدّد متعلّموه في التّشبيه: المشبّه، والمشبّه به، وأداة التّشبيه، ووجه الشّبه، وقل مثل ذلك في الاستعارة والكناية.. إلخ.

والأصل في البلاغة أنّها توقفنا على مكامن الجمال في التّعبير، وتُعين النّاقد في مقارنة القول بالقول مع وحدة الزّمن أو اختلافه، وكما تُعينه في الحُكم على مدى تصوير القول للوقائع، ومدى تناغم المُتخيّل، أو تنافره سلبًا أو إيجابًا.

إذًا فموضوعاتها ليست لذاتها، إنّما هي آلة أو وسيلة تُعيننا على إدراك مُراد القائل، ثمّ ننطلق إلى أبعد من ذلك، حيث لا يُعارضُ منطوق الذّهن؛ لنسبح في خيالات قراءات جديدة كلّما تأمّلنا النّصّ من جديد. ولكلّ ما تقدّم نرى أن التّعبير عمّا جرى في السّابع من تشرين «طوفان الأقصى»، وما سبقه من إعداد ماديّ وبشريّ، وما لحقه من بطولات وعمليّات مخطّط لها، ومواقف المجاهدين والأمّهات والأطفال والصّحيفيّين.. والكاميرات والمظاهرات في مدن العالم.. ففي ما شاهدناه وما سمعناه ما يدعو إلى جعل الكثير منه دروسًا في البلاغة، وتجديدا في المصطلحات، واعتمادها شواهد ثوريّة دقيقة في مواجهة أعداء الأمّة، ومناهضة مشاريعهم اللاإنسانيّة، وقد كان الشّعراء يعيشون الحدث وهم في

قلبه ويناقشون فيه.

والأحداث دائمًا تُلقي بظلالها ليس على صانعيها وعلى من وقعت عليهم فحسب، بل تتوسّع دائرة تأثيرها غالبًا في المجالين الزّماني والمكاني، بما يشمل كلٌّ منها من عناصر وعلى رأسها الإنسان بما يحمل من مفاهيم وتطلّعات واستشراف.. ولا يخرج طوفان الأقصى وصانعوه وبيئة صانعيه عن ذلك المسار. بل من حقّه علينا أن نسعى إلى تخليده بما فيه، واستشراف تأثيراته المحليّة، والإقليميّة، والعربيّة، والإسلاميّة وصولا إلى العالميّة. فما نشهده في المجال العسكريّ المساند في جنوب لبنان المقاوم، وفي اليمن السّعيد، وفي عراق الرّافدين، وحول سفارة الكيان الغاصب في عمّان، وفي المحاكم والمحافل الدّوليّة، وفي مراكز الإشعاع العلمي في مختلف الجامعات في دول غربيّة وشرقية... إنّ ذلك كلّه يستدعي الكلّ دون استثناء، وحيث كان كلّ فرد أو مؤسّسة أو جماعة؛ ليفتحوا أذرعهم، وينشروا أشرعتهم ترحيبًا بكلّ التّأثيرات.

وفي مجال البلاغة قد لا يكون سهلًا أو عمليًّا، لذلك نرى أن يبذل أهل الاختصاص جهودًا ليعيش "طوفان الأقصى" في أجيال الأمّة: لغة، وبلاغة، ونقدًا، وتفكيرًا استراتيجيًّا. وتكتيكيًّا، وثقافة سياسيّة واجتماعيّة، واقتصاديّة، وعلومًا تجريبيّة وصولا إلى العلوم السّلوكيّة والتّربويّة...

فما الضّير في الدّرس البلاغيّ أن نستعمل مصطلحات مِن مثل:

1- عبارة قسّاميّة

2- أسلوب شواظيّ

3- استعارة ياسينيّة

4- مفردات صفريّة

5- عبارات نَفقيّة

6- تماسك نابلسيّ. نسبة لأمّ الشّهيد إبراهيم النابلسيّ.

وليأتِ القدح الذّهنيّ، وطرائق التّفكير الإبداعّي لتفصيلات وتنزيلات ومطابقات بين هذه المُقترحة وتلك الشّائعة المُعتمدة، حتّى يستقرّ المصطلح، وتحدد عناصره، وكلّ مُصطلح يشيعُ إذا استعمله أهله، وسهّلوا استعماله، وتدارسوه، وتبادلوه، وعدّلوا فيه زيادة أو حذفا...